

هند بنت حُجر

انفض الجمع بعد أن أدى الرسل من رسالة من بعثوهم من أقيال اليمن لتعزية امرئ القيس في أبيه ؛ وبعد أن حملوا إليه تحياتهم ووعودهم بمساعدته في طلب الثأر من بنى أسد، وقام المجتمعون ذاهبين إلى منازلهم التي أعدت لهم، وعاد امرؤ القيس وعامر ابن معاوية الجون نحو بيوتهما وهما يفيضان بشرًا، بما تهيأ لهما من التوفيق في ذلك الاجتماع، فقد فازا فيه بوعد من أكبر أقيال حمير، مرثد الخير بن ذى جدن، بأن يمدهما بكتيبة قوية من فرسانه تساعدهما على الثأر من بنى أسد، وبوعود من شيوخ كندة، أن ينهضوا جميعًا لنصرتهم، حتى يبلغا ما يرضى كبرياء أهل اليمن طرًا من رعاياهم الثائرين.

وكان وجه عامر يتهلل بشرًا وهو يخاطب صاحبه أثناء السير، إذ قال: «لقد كنت ملكًا في مجلسك يا بن أخى».

فتبسم امرؤ القيس وهو ينظر إليه وقال: «لقد كدت أضعف عن كتمان الضحك كلما رأيتك تنادينى بالألقاب الملك».

فأجاب عامر في لهجة الجد: «ألسنت ملكى أبيت اللعن؟ لن تسمع منى غير هذه الألقاب فى حضرة القوم».

فاستمر امرؤ القيس قائلاً: «ولكنى عجبت لك، كيف تتوود إلى ذلك الأسود القبيح، وكأنه وهو يحرك شفتيه يحرك مشفري بعير. لقد عانيت مشقة في كبح نفسى عن الضحك عند مخاطبته». فأجاب عامر بابتسامة واسعة وقال: «لقد فطنت إلى ما كنت تعانيه من كبح نفسك، وحسناً فعلت».

وكان امرؤ القيس قد بلغ خيمته عند ذلك، ورفع سترها، وانحنى يريد الدخول، فنظر إلى عامر وقال وقد اختفت ابتسامته: «إيه يا عامر! فلننح. لننح كما أنحنى الآن عند دخولى الخيمة. هكذا تريد منى الحياة اليوم».

فأحس عامر بما كان يدور فى نفسه من نزاع بين كبريائه، وبين ضرورات حياته. وذهب فى خياله يتصور ذلك الفتى الذى أبى أن ينحنى لإرادة أبيه، وآثر حياة التشريد والفقر، يضرب فى الآفاق مع فتية خلعمهم زوهم مثلما خلعه أبوه، لا يعرفون لأحد سلطاناً، ولا يعبأون إلا بحياة ساعتهم وطاعة هواهم.

وما زال عامر يذهب فى هذا الخيال حتى امتلأ قلبه خشية مما قد تسوقه إليه نفس امرئ القيس الثوارة التى اعتادت أن تكون طليقة، وأن تنظر إلى الحياة عارية، لا تكسوها تلك الأغطية التى خلعمها الناس عليها من عقائدهم وعاداتهم.

ولذلك لم يجب بلفظ على قوله، بل دخل وراءه وخلع نعليه خوف أن يطأ بهما الطنافس الحريرية النفيسة

التي كانت على جوانب الخيمة؛ ودخل امرؤ القيس، فخلع خفه، وجلس على إحدى الطنafs، ووضع سيفه إلى جانبه وأشار إلى صاحبه أن يجلس قريباً منه، فأقبل عامر حتى جلس إلى جانبه صامتاً.

ولما أطمأن بهما المجلس نظر امرؤ القيس حوله كأنه يبحث عن شيء، ثم عاد إلى نفسه، وجعل يهتمهم همهمة غير واضحة، ثم أبانت هممته بعد حين فإذا به يقول:

وقد أغتدى والطيير في وكراتها وماء الندى يجري على كل مذنب
بمنجرد قيد الأوابد للاحه طراد الهواى كل شأو مغرب
فأحس عامر في نفسه قبضة، لأنه عرف من قول صاحبه أنه ما زال يحمل قلب الشاعر لا عزيمة الملك الثائر، وأطرق من غير أن يجيب، فالتفت إليه امرؤ القيس وقال في خفة: «لقد كنت أحيأ عند ذلك يا عامر».

ثم عاد يتلفت حوله مرة أخرى وقال: «أحس عطشاً شديداً». فقام عامر وهو كاسف ليحمل إليه إداوة الماء، فضحك امرؤ القيس وقال: «اجلس يا عامر فما بي من عطش إلى الماء». ثم عاد إلى هممته حتى أبان قائلاً:

ونشرب حتى نحسب الخيل حولنا

نقاداً وحتى نحسب الجون أشقرا

ثم ضحك وقال: «ولكننى آليت على نفسى».

فعاد عامر إلى مجلسه، واشتدت فى نفسه القبضة، وصاحبها عزوف يشبه اليأس، وعاد إلى إطراقه وصمته.

ولاحظ امرؤ القيس ما ارتسم على وجه صاحبه من الوجوم، فقال ضاحكاً: «لا عليك يا عامر، فقد أزعجنى ذلك الأسود الثقيل».

فقال عامر محاولاً أن يصرف الحديث إلى الجد: «تقصد قرمل بن الحميم».

فهز امرؤ القيس رأسه وقال: «نعم. ابن السوداء».

فقال عامر فى شىء من الضجر: «ولكنه بطل الأزد لا يعلو فوقه فى قبائل حمير غير الأمير مرثد الخير بن ذى جدن».

فقال امرؤ القيس ضاحكاً: «ذلك لا يخلع على جلده بياضاً».

فأجاب عامر فى شىء من العبوس: «نحن لا نريد إلا سيفه – وهو فوق ذلك سيد مطاع – لا أحسب ابن ذى جدن يستطيع أن يقاتل معك إلا إذا كان قرمل راضياً».

فتنفس امرؤ القيس نفساً عميقاً وهو يقول: «سنرضيه ما استطعنا، احمل إليه ما شئت أن تحمله إليه، فقد عرفت الطمع فى وجهه المظلم».

فقال عامر متردداً وقد زاد عبوسه عمقاً: «إنه يطمع فى غير المال يا بن أختى».

فنظر إليه امرؤ القيس باهتمام، وقال فى اندفاع: «وماذا يريد غير المال؟».

فقال عامر، ولا يزال مترددًا عابثًا: «إنه رأى هندًا بالأمس». فصاح امرؤ القيس، وقد أخذه قول عامر على غرة منه: «هند؟». فقال عامر ناظرًا إليه في ثبات: «نعم قد رأها بالأمس، فلما لقيته في صباح اليوم طلب إلي أن أحدثك في زواجه منها». فاحمر وجه امرئ القيس، وخبط بيده على مقبض سيفه الذى إلى جانبه، وقال فى غضب ظاهر: «ما ظننت أن نفس العبد تنازعه إلى مثل هذا».

فقال عامر مراجعًا، وهو يحاول كتمان حنقه: «إنه ابن الحميم». فقال امرؤ القيس: «ومن يكون ابن الحميم؟ أيتطلع إلى ابنة حجر؟ لأجدعن أنفه لو تحدث لى بهذا».

فقال عامر، وقد بدأ الحرج يغلب على صدره: «ولكنك تفسد أمرك لو فعلت».

فقال امرؤ القيس غاضبًا: «لست أبالى ذلك، ولو كان الأمر معلقًا على..».

ولم يتم قوله، فإن عامرًا قاطعه صائحًا، وقد نفذ احتمالته: «أراك تدافعنى كأننى أدعوك لتصيب لى ثأرى، إننى أحتال لك ولا تزال تتعذر على، وأنظر فى أمرك ولا تزال ترهقنى وتمتنع منى؛ فإذا شئت فافعل ما بدأ لك بغير مراجعة منى».

فوقف امرؤ القيس ينظر إليه لحظة فى دهشة، ثم قال متألمًا: «كأنى بك تهددنى».

فأجاب عامر وهو يحاول العودة إلى هدوئه: «لست أهددك،
فأنا من عشيرتك. ولكنى لا أفتح لك سبيلا إلا سدتها على».
فاندفع امرؤ القيس قائلا: «أذلك لأنى لا أقذف بابنة حجر إلى
غير كفاء لها؟ لم لا تزوجه إحدى بناتك إذا شئت؟».
فتحرك عامر، كأن نارًا لذعته وقال، وقد تفلت منه زمام نفسه:
«هل ابنتى دون هند فى شرف المحتد يا بن حجر؟».
فارتد امرؤ القيس، وسكنت حدته، وقال محاولا أن يصلح
أثر كلمته: «لم أرد ذلك، ولكنى علمت أنك لن ترضى بمثله بعلا
لابنتك».

فقال عامر ولا يزال غاضبًا: «لو كانت لى ابنة أخرى تصلح
أن تكون فى النساء لزوجتها لمثله، فهو سيد، ومثله يؤتمن على
النساء».

فطعنن هذه الكلمات امرؤ القيس، وسرعان ما ذهبت به الذكرى
إلى فاطمة فما كان قول عامر إلا صدى قولها إذ تقول له فوق
الكثيب: «لست على بأمين». وتمثل ذلك الصباح البعيد منذ سنين،
وهى عند الأفق راقبة، وأبوها يضرب بها أكباد الرواحل، لكى
يبعد بها عنه. أبوها عامر الذى يحدثه فى تلك الساعة، ويقول له:
إن ابن الحميم كفاء لابنته، وإن مثله يؤتمن على النساء.

لقد وخزته ألفاظ عامر وخزًا أليماً، وعاد إليه الجرح القديم
دامياً، ولم يملك أن قال فى شىء من العنف: «كأنك تذكرنى بأمر
كدت أنساه».

فأجاب عامر مسرعاً وقد زاد في لهجته قسوة: «لست أبالي أن تذكر ما كدت تنسى، ولكنى أحسبك لن تقدر على ما أنت مقبل عليه».

فرفع امرؤ القيس رأسه وقد احمر وجهه وقال: «ماذا تقصد؟». فقال عامر في كثير من الجفاء: «لا أقصد شيئاً أكثر من أن أقول لك ما أرى. أنت مقبل على حرب وطلب ثأر، ولم تكن لك من قبل فى قومك حظوة، فإنهم لم يعرفوك ولم تعرفهم، ولم يحاربوا معك من قبل ولم تحارب معهم، فلا بد لك من أن تستميلهم وتتكشف لهم عن كرم ومودة؛ ولكنك تأبى إلا أن تبقى متعلقاً بحياتك التى كنت تحياها، وتأبى إلا أن تظل معتزلاً متكبراً، وتزعم أن العرب يلتفتون حولك إذا أنت أهديت إليهم بعض ما يهدى. إنك لن تجد فى العرب من تشتريهم غير أولئك الصنائع الذين لم يغنوا عن أبيك شيئاً».

وكان فى لهجة الرجل ونبرات صوته معنى جعل لألفاظه على قسوتها وقعاً لا يقاوم، فأحس امرؤ القيس كأن قوة خفية ترغمه على الخضوع له والثقة فيه، فصمت حيناً حتى عاد إلى هدوئه، ثم قال مجيباً فى شىء من الانكسار: «ألم تجدنى مطيعاً فيما أشرت به؟ ألم تحمد ما كان منى ألم تقل لى ذلك منذ ساعة؟».

فنظر عامر إليه ملياً ودبت فى قلبه الرقة له ثم قال له: «نعم. لقد غالبت نفسك فى حضرة القوم، ولكنك خرجت من بينهم وفى قلبك ما فيه من الغيظ؛ ولن تستطيع أن تبلغ غايتك إذا بقيت فى ذلك النضال بين نفسك وبين ضرورة حياتك».

فسكت امرؤ القيس لحظة أخرى يفكر فى أقوال صاحبه، ثم رفع بصره إليه وقال فى لهجة تشبه لهجة المقهور: «وهند؟ أتكون هند زوجة لهذا الرجل؟».

ثم أضاف متوسلاً: «إنك يا أبا الجون من نؤابة كندة - أنت ابن عم حجر، وأنت ابن معاوية الجون - أترضى لهند أن تذهب إلى مثل قرمل؟ أكان حجر يرضى بذلك؟ وهى. أتكون هند الجميلة المنعمة عند رجل لو لم يكن أبوه عربياً لكان يباع سلعة ويشترى». فأطرق عامر وقد تأثر بقول امرئ القيس، ووقع توسله فى نفسه، ثم قام بعد لحظة، وكان فى جوابه متردداً: «لقد سمعت ما قاله قرمل، وأنا أعرف ذلك الرجل. إنه سيد مطاع فى الأزد لا يقدر مرثد الخير نفسه على إنفاذ رأى إلا إذا كان راضياً عنه. ولئن رددت طلبه وأبيت عليه صهرك لما وجدت منه غير الحقد والعداوة».

فسكت امرؤ القيس ملياً ثم قال بصوت خافت: «أما ترى يا عامر من حيلة فى أمره؟».

فلم يجبه عامر بل نظر إليه وغاب فى تفكير طويل. ثم قال كأنه يخاطب نفسه: «نحاول أن نمنيه، ونتربص به تطاول الزمن». فوجد امرؤ القيس فى ذلك الرأى أملاً فى الخلاص فقال مسرعاً: «تمنيه بالرضى بعد أن تضع الحرب أوزارها».

فتحرك عامر يريد القيام وقال وهو يتنفس: «سأحاول ما استطعت».

ثم أسرع خارجاً وهو يقول كأنه يلقي أمراً: «إذا ما جهز الطعام أرسلت في طلبك فما ينبغي أن تغيب عن طعامك مع القوم».

فنظر امرؤ القيس في آثاره حيناً حتى اختفى، ثم ألقى بنفسه على طنفسة وأكب على وجهه باكياً؛ وذهب في نشيج مرّ لا يقوى على مقاومته.

كانت هند مقيمة في خيمتها في جوار خيمة أخيها، وكانت تراه منذ خرج في الصباح ذاهباً مع عامر للاجتماع بوفود قبائل اليمن؛ ولما علمت بعودته أحببت أن تدخل عليه، فسمعت صوته وهو يتحدث مع عامر، فعادت إلى خيمتها تترقب خروج صاحبه لتدخل إليه. فلما رأت عامراً يسرع نحو منازل الوفود، أقبلت لترى أباها حتى تعلم منه ما كان من أمر القوم معه، ورفعت ستر الخيمة ونظرت إليه فوجدته مكباً في نشيج يهتز اهتزازاً عنيفاً ويحاول كتمان صوته. فارتاعت أشداً ارتياح وأسرعت إليه، وقد غلبتها صيحة ملؤها الذعر والأسى. فرفع امرؤ القيس رأسه في ارتباك وخجل واعتدال جالساً وهو يمسح دموعه ويسكن من اضطرابه، وجثت هند إلى جواره ووضعت ذراعيها على كتفيه وهي تنظر إلى وجهه وقالت في لهفة: «ماذا أصابك يا شقيقتي؟ أغضبك عامر؟ هل آذاك شيء من القوم؟».

فأجاب امرؤ القيس، وقد أمسك بيديها برفق، وأجلسها إلى جانبه: «لا يا أختاه إنما هو عارض يعتريني لا أستطيع مغالبتة، أنت تعرفين ذلك في منذ صغرى. فلا تجزعي مما رأيت».

فقالت ولا تزال متلهفة: «هل لقيت القوم وحدثتهم؟». فقال امرؤ القيس يريد تسكين جأشها: «نعم. ولم أجد عندهم إلا كل خير».

وكان قد ملك نفسه قليلا، فاستوى في جلسته، وأخذ يحدثها عما حملته إليه الوفد من مواساة أقيال حمير، ووعود شيوخها في مساعدته على طلب ثأره، ثم قال لها وهو يتكلف الابتسام: «وإذا ما بدأت الحرب فلن يكون في القلب من شجن غير الانتقام». فمدت هند يدها إلى رأسه، فجعلت تمسحه بعطف، ثم قالت في ضراعة: «عزمت عليك يا أخى إلا قلت لي ما أثار حزنك». فحول امرؤ القيس عينيه عنها وقال متكلفا الابتسام: «ما عندي سوى ذلك العارض الذى ينتابنى».

فقالت هند وقد انحرفت تجاهه، ووضعت يديها على خديه، ونظرت في عينيه: «خبرنى بحق ما الذى حرك هذا العارض؟». فصمت امرؤ القيس لحظة، وهو يحاول التخلص من نظرتها، وأراد أن يختلق بعض المعاذير، فارتبك ولم يستطع إلا أن قال: «ليس فى الأمر سوى حديث هين، لا يلبث أن يزول أثره». فأعدت هند قائلة فى إلحاح: «خبرنى ما ذلك الحديث الهين، لعلى أستطيع أن أساعدك، لقد كان حجر يفضى إلى بذات نفسه إذا ضاق بأمر».

فتحرك امرؤ القيس قلقاً ثم قال وهو يمسك بيديها ويزيحهما عن وجهه برفق: «رجل من القوم اسمه قرمل».

فقالت هند فى اهتمام: «ما باله؟».

فقال امرؤ القيس فى تردد: «حدثنى عامر عنه أنه يطلب ثمنًا
غاليًا لمساعدته».

فقالت هند وقد سرى عنها بعض القسرية: «لا يحزنك هذا،
أعطه ما أراد من ثمن».

فتردد امرؤ القيس مليًا ثم قال وقد عاوده الغضب: «إنه لا يطلب
مالًا».

فارتدت هند قليلا برغمها، ثم قالت فى شبه صيحة: «إذًا فأى
ثمن يريد؟».

فنظر إليها امرؤ القيس فى حزن وقال: «هو يريد زوجة».

فحملت هند ناظرة إلى وجه أخيها، كأنها ناظرة إلى شىء
بعيد، ثم فتحت فمها كأنها تريد أن تصيح، ولكنها ملكت نفسها
بعد قليل وأطرقت، وبقيت صامتة حينًا.

فوضع امرؤ القيس يده على رأسها وقال فى رقة وعطف:
«لن أدفع بك أيتها الشقيقة الحبيبة إلى هذا الأسود الكريه،
لن أشتري معونته ببذل سعادتك، لن تتزوجى إلا من كريم خالص
ليس فيه عرق من الهجنة».

فرفعت هند رأسها ببطء وقالت بصوت خافت: «وا أسفاه
يا شقيقى، ما أشقانى إذ أكون العقبة فى سبيل تارك وثأرى».

ثم وضعت رأسها على يدها ، وتركت نفسها للحزن ، وجعلت تتحدث كأنها تخاطب نفسها : «أى حجر ! غفرك لما يصب هامتك من عطش يسبى».

فقال امرؤ القيس مشفقاً : «لا تحزنى يا أختاه ، فلن تتزوجى إلا ممن ترضين».

فقالته هند وهى تبكى : «لو كنت متزوجة يا أخى لكان قرمل زوجى».

فصاح امرؤ القيس قائلاً : «قرمل؟ ابن السوداء؟».

فقالته هند بصوت ثابت : «لست أبالى من تكون أمه . هو سيد من سادة العرب وهو كفاء كريم».

فدهش امرؤ القيس من جواب أخته ، وصمت لحظة ينظر نحوها نظرة تساؤل وعجب . فأستأنفت هند قائلة وهى مطرقة : «ولعلك تعجب إن أقول قولى هذا . لقد كنت أوتر أن أجعل أمرى طى فؤادى ، فلا أبوح به لأحد ولكنى أجد الحال تضطرنى إلى الإفضاء بما كنت أود كتماناه . لقد آليت لا أتزوج أحداً بعد قتل ابن عمى حسان - حسان بن عمك شرحبيل ، الذى قتله المنذر فيمن قتل من قومنا . لن أتزوج أحداً بعد حسان».

وما انتهت من قولها حتى استخرطت فى البكاء ، وجلس امرؤ القيس إلى جوارها يمسح رأسها ، ويحاول أن يواسيها وعيناه مبللتان بالدمع .

هروب بنى أسد

مضى الشتاء، ومر بعده الربيع؛ وكانت مروج نجد لا تزال بها بقية من حلقتها الياضعة من زهور العرار والأقاحى، وانتشرت عليها قطعان بنى أسد، ترعى فيما بقى فى وديانها؛ وقد اطمأن القوم إلى هدنتهم مع امرئ القيس، وحسبوا أن لن يغزوهم قبل حلول الشتاء الجديد.

ولكن امرأ القيس لم يجد فى اليمن ما يدعوه إلى البقاء، فقد كان يطمع فى مساعدة حمير، واجتماع قبائلها على نصرته، فحال بينه وبين ذلك قرمل بن الحميم الذى رده امرؤ القيس عن مصاهرته معتذراً بعذر يشف عن الرفض، غير مبال ما يجره ذلك عليه من غضب صديقه عامر بن الجون، ولا ما يصيبه من الخيبة فى آمال عقدها على نصره قبائل حمير التى لا تستطيع مخالفة ذلك الزعيم المخيف، ابن الحميم.

فنزح امرؤ القيس عن اليمن قاصداً إلى ديار تغلب وبكر، ليلتمس عندهما من المعونة ما فاته فى قبائل اليمن؛ وكانت له إلى تغلب وسيلة قوية، فقد كانوا أخواله، قوم أمه فاطمة ابنة ربيعة أخت كليب والمهلل؛ وكان سيد تغلب كلثوم بن مالك يتصل إليه بالنسب، إذ كانت امرأته ليلى بنت المهلهل، أم ولده البطل

الشاعر عمرو بن كلثوم، وكانت ابنة عمه الحبيبة فاطمة ابنة عامر، مقيمة في تغلب مع زوجها جابر بن يحيى؛ وكان حب زوجها لها، يبعثه على الوقوف إلى جانب ابن عمها، طلباً لثأر حجر ومن قتل من قومها بنى آكل المرار. وكانت لامرئ القيس إلى بنى بكر وسيلة أخرى من غير النسب، فقد كان بينهم وبين المنذر عداوة مُرَّة وحروب دموية، لا يزالون يذكرون ذلك اليوم الذى أسأل فيه المنذر من دمائهم ما أسأل، وقد آل ليذبحن شيوخهم فوق جبل أواراة حتى تبلغ دماؤهم الحضيض.

فما أقبل أول الصيف حتى كان امرؤ القيس يسير فى جموع من كندة وبكر وتغلب، متجهاً إلى أرض بنى أسد، وهو ممتلئ بالأمل أن ينال ثأره وينكل بقتلة أبيه، ويستعيد ملكه فيهم قاهراً، ثم يقف للمنذر بعد ذلك عزيزاً منصوراً. ولم تثنه عن سيره هذا معارضة عامر إذ كره أن ينقض عهده مع بنى أسد على أن يهادنهم حتى تضع الحوامل ما فى بطونهم.

ونزل بعد سير طويل على مقربة من ماء (عُباعب) فى أطراف أرض بكر مما يلي أعداءه. وهناك أقام حيناً يتجسس الأخبار ويبث العيون فى حذر وكرمان.

كان رعاة بنى أسد يمرحون فى المرج الفسيح المجاور لماء (ضارج) وكان الصبية منهم يتسابقون حيناً ويطرامون حيناً ويتواثبون حيناً، وأما العبيد فذهبوا إلى ناحية، بعضهم يجهز

لنفسه طعاماً، وبعضهم يستلقى مستريحاً فى ظل صخرة، وهم لا يبعدون عن جوار الماء ليحملوا منه حاجاتهم، بعد أن انقطع المطر وجفت الوديان وبدأ الصيف، وذهبت الإبل ترعى قطعاً فى منابت العشب فى بطون الوادى، وهى آمنة من المزالق منذ جف الصخر وتماسك الرمل. وأوغل الضأن فى ثنايا السهل يطلب لبن الكلاء، بعد أن صوح وذبل، واعتلى المعز جوانب الجبل يثب خفيفاً، ويقفز من صخرة إلى صخرة يطلب الأعواد الغضة والأوراق النضرة من ثنايا الحجارة وظلال الشقوق. وكان جميع هؤلاء يقبلون على ما هم فيه فى شغف ونهم، كأنهم يودعون تلك المروج توقفاً لقيظ الصيف وجفافه، فكانوا يتزودون من طيب نسيم ذلك اليوم لما ينتظرون بعده من سَمُوم وهَبُوب. وفيما كان الرعاة فى لعبهم أقبل فارسان متلثمان فنزلا عند الماء وربطتا فرسيهما عنده تحت شجرة من الطلح؛ ولكنهما لم يطلبتا ماء، ولم يجلسا لراحة، بل ذهبا نحو الرعاة وهما ينظران حولهما فى شىء من الحذر والريبة.

فوقف الصبية ينظرون إليهما حيناً، وجرى أحدهم إلى العبيد ليخبرهم بقدوم الفارسيين، فما هى إلا ساعة حتى كان الرجلان يتحدثان فى مرح مع من اجتمع حولهما من الصبية والعبيد، واستطاعا بعد حين قصير أن يستميلا هؤلاء جميعاً بما قدماه لهم من هدايا صغيرة، كحفنة من التمر، أو قطعة من التين المجفف، أو رأس سهم، أو حبات من الخرز.

وقضى الفارسان فى الحديث مدة كانا فيها بين حين وحين يسألان الرّعاء عن قومهم، فإذا أحسا بالريبة تداخلهم فى شأنهما مزجا الجد بالدعابة، أو ساقا الحديث إلى عجيبه رأياها فى سفرهما حتى يذهب الشك عنهم، ثم يعودان إليهم بعد ذلك، فيتسلان إلى السّؤال عن منازل القوم ومراعى إبلهم، وعن المقيم منهم والمسافر، وفيما هما فى ذلك الحديث حانت منهما نظرة إلى أقصى السهل فأبصرا فارسًا مقبلًا يسير فى غير عجلة فهما قائمين فى اضطراب ظاهر، ونظر الصبية والعبيد نحو الفارس فذعروا وتواثبوا صائحين، وتفرقوا يطلبون أنحاء الوادى، وكل منهم ينادى صاحبه، ويوصيه ألا ينم عليه.

وأسرع الفارسان عند ذلك إلى فرسيهما، فركبا وانطلقا يعدوان حتى اختفيا وراء ثنية الوادى، لا يلويان على شىء. وأسرع الفارس المقبل عند ذلك حتى بلغ الماء، ثم سار إلى المرج فنادى بعض الذين كانوا على مقربة، فأقبلوا إليه فى تردد وخوف؛ فلما وقفوا أمامه ترجل واقترب من أحدهم وأمسك بكتفه، ونظر إليه فى صرامة وقال: «من هذان اللذان كنتم معهما الساعة» فنظر الصبى خائفًا إلى أصحابه، وحاول أن يتمتم بعض ألفاظ أراد تلفيقها، فهزه الفارس هزة عنيفة وقال له غضبًا: «أجب عمًا سألتك عنه قبل أن أذهب بذلك الرأس القدر».

فصاح الصبي متألمًا من الهزة، وقال وهو ينظر إلى الفارس في خشية: «لم أفعل شيئاً وحق مناة. لقد كنت عند غنمي فناداني هؤلاء».

فصاح الصبية كل منهم يتهم صاحبه، بأنه هو الذى ناداه؛ وفي وسط ضجيجهم هز الفارس الصبي هزة أعنف من الأولى وقال له: «قل فيم كانا يحدثانكم ولا تُخف شيئاً».

فقال الفتى صائحًا: «سأخبرك إذا تركتني».

فتركه الرجل وهو ينظر إليه في لهفة، وأخذ الصبي يقص عليه خبر الرجلين وما أعطياهم، وما قالوا لهم وما سألاهم عنه، والفارس يستمع إليه في اهتمام وصمت حتى انتهى الصبي، فنظر الرجل إليه نظرة مخيفة وضربه بجمع يده ضربة ألقته على الأرض، ثم أسرع إلى فرسه فركبها، وعدا راجعًا إلى منازل قومه حتى إذا ما كان بين البيوت، نزل وأسرع إلى خيمة عالية في وسطها، فرفع الستر ونادى بصوت مضطرب: «أبا ثعلبة!».

فأجابه صوت من الداخل: «لبيك!».

ثم خرج صاحب البيت ليرى من الطارق، وكان رجلاً شيخًا أبيض اللحية حسن الهيئة مهيب الطلعة، وهو عمرو بن مسعود سيد بني أسد، فقال عندما وقعت عينه على صاحبه: «علباء؟».

فقال علباء بن الحارث الكاهلي هامسًا وهو يشير إلى الشيخ يطلب منه أن يخفض صوته: «لقد اقترب امرؤ القيس وبعث فينا جواسيسه».

فنظر إليه الشيخ في دهشة عظيمة وقال في دفعة: «ألم يوادعنا حتى تضع الحوامل؟».

فضحك علماء ضحكة مرة وقال في سخيرية: «وهل نلومه على نقض العهد، وقد قتلنا أباه؟».

فأشار له ابن مسعود أن يدخل معه الخيمة، وهناك جلس علماء يحدثه بما رأى وما سمع، حتى انتهى من قوله، فقال الشيخ في صوت خافت والجزع يبدو عليه: «لقد أتى إلينا قبل أن نتوقع مجيئه».

فأسرع علماء مجيباً: «ليس لنا أن نقيم في هذه الأرض بعد اليوم».

فنظر إليه عمرو وقال: «ولكننا لا نستطيع أن نتحرك هذه الليلة. فإن أموالنا موزعة وسوائمنا منتشرة في الأرض وبيوتنا مستقرة».

فقال علماء في شيء من التبرم: «هم لا يطلبون أموالنا، وإنما يقصدون الإيقاع بنا، فلندع السوائم في مراعيها، فلن يكون له قصد إلا منازلنا».

فقال عمرو كأنه يخاطب نفسه: «والى أين؟».

فأسرع علماء قائلاً: «نرسل أموالنا ورعائنا إلى أبناء عمنا بنى كنانة، ثم نضرب في أرض اليمامة، فلا يدركوننا».

فصمت عمرو بن مسعود لحظة، ثم قال هادئاً: «هذا أمرٌ لا بد فيه من المشاورة، فهلّم لنرى المهاجر بن خدّاش، وقبيصة بن نعيم».

ولم ينتظر جواباً على قوله، بل قام وعلباء يسير في إثره؛ حتى بلغا أطراف المنازل، ووقفوا عند خيمة عالية منعزلة عن البيوت. وأشار الشيخ إلى علباء أن يستأذن لهما في الدخول.

* * *

في تلك الليلة كان بنو أسد يسيرون مسرعين إلى أرض أبناء عمهم بنى كنانة في الشرق، يسوقون أمامهم أموالهم، تضرب الرعاء أكبادها، وتحملها قسراً على الإسراع؛ كأن العدو لاحق في آثارهم. وقد ترفق بهم الليل؛ فكان القمر يجلو لهم فداد الأرض الوعرة؛ وكان النسيم البليل الهادئ يخفف عنهم مشقة ذلك السير العنيف، حتى نسي القوم ما هم فيه، وكأنهم شعروا أنهم قد تخلصوا من خطر داهم، فامتلات قلوبهم بنشوة النجاة، فلم يلبثوا أن عمهم المرح، فأخذ شبانهم يحدون ويمرحون، ونساؤهم في هودجهن يغنين ويزغردن، والرجال منهم يتحدث بعضهم إلى بعض، يتذكرون ما يتوقعون من غيظ عدوهم الحانق، إذا ما هبط إلى الأرض التي هجروها فوجد تدبيره واحتياله قد انتهى به إلى دار خالية.

بعد ثلاثة أيام من السير كان بنو أسد قد بلغوا ديار بنى عمهم كنانة، واستشعروا شيئاً من الأمن والاطمئنان. وأتى الليل وقد ضربوا خيامهم في واد منعزل، ونحروا من إبلهم، وأصابوا من طعامهم، واجتمعوا في حلقة للسمر، ليحتفلوا بالخلاص والنجاة قبل أن يسلموا أنفسهم للراحة بعد ما عانوه من مشقة المسير.

وجرى الحديث بين القوم فى بشر ومرح وغناء ورقص، حتى مضى صدر من الليل، وأرادوا الانصراف إلى خيامهم، فوقف شاب فى وسط الحلقة، وجعل يخطر متمائلاً وسيفه فى يده، يلوح به فوق رأسه حيناً، وحول كتفيه حيناً. وأخذ يتغنى بأبيات من شعر عبيد بن الأبرص، يتهمك بامرئ القيس وبقومه، وقال:

يا ذا المهددنا بقت	ل أبيه إدلالا ومينا
هلا رأيت جموع كند	دة يوم ولوا أين أيننا
نحن الألى فاجمع جمو	عك ثم وجههم إلينا
واعلم بأن جياننا	آلين لا يقضين ديننا
ولقد أبحننا ما حمي	ت ولا مبيح لما حمينا
نحمرى حقيقتنا وبع	ض الناس يسقط بين بينا

وما انتهى من إنشاده حتى علت صيحة من الشبان، وقاموا جماعات ووحداً يتبارون فى الإنشاد بأشعار ابن الأبرص، ويتغنون بإبائهم ظلم كندة، وثورتهم على حجر، حتى شملت الحماسة القوم جميعاً، إلا علباء، فقد بقى مطرَقاً واجماً، لا يشارك القوم فى مرحهم.

فالتفت إليه قبيصة بن نعيم وهو قائم يتمطى ويتشاءب قبل الانصراف، وقال له مداعباً: «ألا ترقص لنا يا علباء رقصة قتل حجر؟».

فصاح الشبان من أطراف الحلقة ينادون باسم علباء، وقال أحدهم بين ضحك الجماعة وضجيجهم: «ها هو ذا نصل مكسور، فخذهُ فهو يشبه نصلك الذي طعنت به حجرًا».

وقال آخر: «قم يا علباء، فوالله لقد طعنت طعنة يتحدث عنها العرب أبد الدهر».

ولكن علباء بقي في مكانه لم يتحرك، حتى سكنت الضجة، والجميع ينظرون إليه متعجبين من وجومه.

فقال له قبيصة في لهجة تشبه اللوم: «ألا تشارك قومك يا علباء».

فتحرك علباء حركة ضعيفة، ورفع رأسه ببطء، وقال بصوت خافت: «حسبي رقصكم وإنشادكم».

فوقعت كلمته وقع الطعنة في نفوس قومه، وسادهم الصمت لحظة، وبدا على وجوههم شيء من الغضب؛ فلقد أحسوا في قوله سخرية لاذعة. ورأى علباء من مظهرهم ما دله على شدة وقع قوله فيهم، فأراد أن يبين لهم مقصده، فوقف ونظر حوله إلى وجوه أصحابه، وبدا وجهه في ضوء القمر أصفر مضطرباً؛ فاتجهت إليه الأنظار في صمت، وأصاحت إليه الأسماع تصغى لما يقول، وبدأ يتكلم في ببطء بصوت ضئيل، ثم أخذ يسرع كلما أوغل في الحديث، ويعلى صوته شيئاً فشيئاً، حتى صار صوته يتردد بعد قليل في الفضاء، وتتجاوب أصداؤه في جوانب التلال. وكان آخر حديثه

أن قال: «إن شاعركم الذى تتغنون بشعره يقيم اليوم فى الحيرة عند سيده الجديد الذى اختاره - المنذر بن ماء السماء - وكأنى به قد رضى أن يبدل لكم سيداً بسيد. قتلتهم حجراً لكى يعوضكم عنه ابن الأبرص سيده الجديد؛ فهو اليوم يرفل فى حلل الديباج والذهب راضياً مطمئناً؛ وماذا يبالى بعد ذلك؟ وماذا تبالون أنتم؟ ألم نقتل حجراً؟ حسبكم ذلك فخراً، واخضعوا منذ اليوم للمنذر، وتغنوا بشعر عبيد. فلقد صرتم اليوم جنوداً للمنذر، بعد أن كنتم رعية لحجر».

فتحرك القوم فى قلق وغضب، وسرت فيهم همهمة الإنكار، وكادت الضجة تعلو فى وجه علباء، لولا أن قام عمرو بن مسعود بوجهه الأبيض ولحيته الناصعة، فوقف وهو مائل على عصاه، وقال بصوت هادئ عميق: «لا تنكروا قول علباء، فما كان ليقول هذا لولا أن رأى فيكم شيئاً كرهه، وما عهدنا فيه إلا رجلاً حليماً، فاسمعوا ما عنده فلعل فيه خيراً».

ثم جلس ونظر إلى علباء كأنه يطلب إليه أن يمضى فى قوله؛ وكانت كلمة عمرو كأنها سحر قوى. فهدأت الأصوات ولاننت النظرات، وعاد القوم إلى الاستماع. ولما عاد علباء إلى القول هذه المرة كان قوله أقل مرارة وأهدأ نغمة، وأرفق معنى. قال: «أى قوم! لقد سمعتكم تنشدون ورأيتكم تمرحون، كأنكم قد أمنتهم وانتهيتم إلى الانتصار على عدوكم، وقد ذهب شاعركم إلى المنذر، وكأنى به

اليوم يحدثه بولائكم له، وانضوائكم تحت لوائه. فهل قتلنا طاغية لنقيم في مكانه طاغية! إننا لم نقتل حجراً لأننا كرهناه، بل كرهنا أن يستبد بنا هذا الكندي اليمنى الغريب وقومه. فإذا كنتم اليوم ترمون بأنفسكم عند أقدام المنذر، فهل نسيتم لمن تخضعون؟ من المنذر ومن قوم المنذر؟ أليس من لحم؟ أليس يميناً غريباً كما كان حجر يميناً؟».

فخشع القوم جميعاً لقول علباء. وصاح قبيصة بن نعيم قائلاً:
«صدق علباء».

وأمن الشيوخ على قوله في غمغمة غير واضحة. ومضى علباء فقال: «وأمر آخر كرهته اليوم يا بنى أم. إنكم هاهنا قد أقمتم يوماً واحداً في دعة وسكون، فأقبلتم ترقصون وتغنون. أفتظنون أن عدوكم يسكن عنكم فاطمأنتم وألقيتم العصا؟ ألا إن امرأ القيس لا يفصل بينه وبينكم إلا ريثما يعلم بسيركم، وهو لا بد لاحق في آثاركم. وإذا أدرككم بعد ذلك وأنتم ترقصون وتمرحون، فما أطيب قلبه بثأره».

وكان المهاجر بن خداش لم يتكلم طول ذلك الوقت، فلما بلغ علباء نهاية قوله تحرك واقفاً، فانصرفت إليه الأنظار التي كانت متجهة إلى علباء، وحبس القوم أنفاسهم ليسمعوا ما يقول ذلك الرجل ابن عم عبيد بن الأبرص. وبدأ المهاجر يتكلم في شيء من الارتباك وهو مطرق. فقال: «أى قوم؛ لقد سمعتم قول علباء في

ابن عمى عبيد، وفي صاحبه المنذر. ألا إنه قد صدق، وما أحسب
ابن عمى إلا رجلاً شاعراً يلتمس الوسيلة إلى مثل المنذر من الملوك.
فحسبكم منه ما يشيد به من ذكركم، ودعوا ذكر لحوقه بالمنذر.
خذوا منه ما أعطاكم، أما هو فدعوه وشأنه فليس فيكم بالسيد
المتبوع. وأما ما قاله علماء من ضرورة الجد في أمركم فلقد قال
صدقاً، وحسبكم اليوم مرحاً. فإن عدوكم لم يدع سلاحه، ولم ينزل
بعد عن خيله اللاحقة بكم».

وطال الحديث بين القوم حتى مال القمر نحو الغروب؛ وتبين
للقوم بعد تقليب الرأي وتمحيصه أن مقامهم في جوار كنانة غير
مأمون، وأن الأولى بهم أن يبعدوا في الأرض، حتى لا يجعلوا
لامرئ القيس عليهم سبيلاً، وهو في حلفائه وأشياعه وأتباعه،
وألا ينيلوه غرضاً من ثأره، وأن يتربصوا به تطاول الزمن وجهد
الأسفار والمطاردة، حتى يمل أصحابه ويسأموا الضرب في الأرض
وراء عدو لا يلحقون به، فيخذلهم انقضاء الأيام معه في غير طائل،
فينفضوا من حوله على يأس من أمره.

وانصرف القوم من اجتماعهم على رأى عقدوا عليه النية
ألا يستريحوا سائر ليلتهم، وأن يخلعوا الأوتاد ويحملوا الظعن
ويكتموا أمرهم عن بنى عمهم، فلا يشعرونهم بأنهم راحلون
عنهم، وأن يواصلوا السير في تلك الليلة نفسها ضاربين في الأرض
الفسيحة نحو صحراء الجنوب.